تعاور الكلمات في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية

The words are intertwined in the verbal similarities in the Holy quran and its rhetorical secrets

د.محمد شيباني

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف (الجزائر)

البريد الالكتروني: pr.chibani.ens@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/10/15 تاريخ القبول:2020/01/13 تاريخ النشر: 2020/03/27

ملخص:

تعاور الكلمات في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم معناه أن تأتي آيتين أو أكثر متشابهتين إلا في كلمة واحدة أو كلمتين مختلفتين، وليس هذا الاختلاف من قبيل الصدفة، بل اختلاف له أسبابه وغاياته ومقاصده ومناسبة مقاله لما يقتضيه المقام، وكل هذا يندرج ضمن دلائل إعجاز النص القرآني الخالد.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، قرآن كريم، تعاور، كلمة، متشابه.

ABSTRACT :

The words in the literal similarity in the holy quran mean that two or more similar words come in one or two different words.

This difference is not coincidental, but rather a difference with its causes, aims and purposes, and all this is part of the signs of the ;iracle of the koranic text immortal.

Keywords:

rhetoric, holy quran, word cools, similar.

تمهيد:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

نقصد بتعاور الكلمات تداولَها على مكان واحد من الآية وتناوبها عليه، فيأتي التعبير بكلمة في آية ما، ويأتي بكلمة أخرى في ما يشبهها من الآيات، حيث جاء في اللسان ما نصه[1]: « المعاورة والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين ... واعتوروا الشيء، وتعوّروه، وتعاوروه: تداولوه فيما بينهم ... وفي الحديث: يتعاورون على منبري أي يختلفون ويتناوبون كلما مضى واحد خلفه آخر ... والتعاور عام في كلّ شيئ[2] ... ومعنى تعاورت الرياح رسم الدار أي تداولته، فمرة تهب جنوبا ومرة شمالا ومرة قبولا ومرة دبورا ... وقال ابن الأعرابي: التعاور والاعتوار أن يكون هذا مكان هذا، وهذا مكان هذا» انتهى بتصرف.

وقد كثرت مادّة هذا البحث بما لا يتّسع المجال لذكرها بالكلّيّة، فآثرنا إغفال بعضها طلبا للإيجاز، وذكر ما يناسب المقام، تحقيقا لغاية البحث وتجلية لمقاصده.

على أننا نعمد في بداية هذه المادة إلى ذكر ما تيسر من الأمثلة والشواهد التي تثبت ما ندعيه، ثم نردف ذلك بالتعليقات والمناقشات التي أحسبها من صلب هذه المادة وأساسها.

1- قوله تعالى:" **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ**" [البقرة: 18].

وقوله سبحانه: " **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**" [البقرة: 171].

جاء في الأولى " **لا يرجعون**" وفي الثانية " **لا يعقلون**" ذلك أنّ الأولى قيلت في حقّ المنافقين، والثانية قيلت في حقّ الكافرين[3]، فالمنافقون لمّا مُثّل حالهم بحال مستوقد النار لطلب الإضاءة، وأنّه لمّا أضاءت ما حوله أذهبها الله وانطفأت، فلم يكن له ما يستضيء به ويرجع إليه، نفى عنهم وجود ما يرجعون إليه من ضياء يدفع حيرتهم وظلمة الخبث الذي به يمكرون وفيه يتخبّطون.

أمّا الكافرون فمُثّل حالهم بحال الغنم في كونها يصاح بها وينادى، فلا تفهم عن راعيها، ولا تسمع إلّا صوتا لا تعقل معناه، ولا تفهم ما يراد به، كذلك الكفار في خطاب الرسل إيّاهم فلا يجيبونهم ولا يعقلون ما يراد بهم، فجاء كلّ على ما يناسب[4].

2- قوله تعالى: **" وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا"** [البقرة: 60].

وقوله تعالى: **" وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا"** [الأعراف: 160].

ومدار المسألة حول لفظتي **"انفجرت"** في البقرة، و**"انبجست"** في الأعراف، وذلك أنّ الانبجاس ظهور وهو دون الانفجار، الذي يعني انصباب الماء بكثرة، والانفجار أبلغ، لما ذكر بعدها من قوله تعالى: **"كلوا واشربوا"** فاحتيج إلى لفظ بليغ، أمّا في الأعراف ففيها: **"كلوا من طيبات ما رزقناكم"** وليس فيها **"واشربوا"**، فلم يبالغ فيه[5]. والله أعلم.

3- قوله تعالى: **" وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود"** [البقرة: 125].

وقوله عزّ من قائل: **" وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود"** [الحج: 26].

عبّر بـ: **"القائمين"** في الحجّ بدل **"العاكفين"** لأنّ ذكر العاكف هنا سبق في قوله تعالى: **" إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم"** [الحج: 25]، ومعنى القائمين: المصلّون، وقيل بمعنى المقيمين، وهم العاكفون، لكن لمّا تقدم ذكرهم عبّر عنهم بعبارة أخرى للتفنّن في الفصاحة والإعجاز.

أمّا آية البقرة فلم يسبقها ما يدل عليها، فجاءت على الأصل. والله أعلم[6].

4- قوله تعالى: **" وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون"** [البقرة: 170].

وقوله سبحانه: **" وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون"** [المائدة: 104].

والاختلاف في الآيتين وقع في موضعين:

الأوّل: قوله تعالى في البقرة: **"ألفينا"** وفي المائدة: **"وجدنا"** ومعناهما واحد، واختلاف لفظهما للتفنّن في التعبير والفصاحة والإعجاز.

الثاني: في قوله تعالى: **"لا يعقلون شيئا"** في البقرة، و: **"لا يعلمون شيئا"** في المائدة؛ ذلك أنّ العلم أبلغ درجة من العقل، ولهذا جاز وصف الله به، ولم يجز وصفه بالعقل؛ لأنّ "يعقل" معناه: يحصر الشيء بإدراكه له عمّا لايدركه، ويقيّده تمييزُه له عن غيره، ممّا لا يدركه، أو معناه: حبس النفس عمّا تدعو إليه الشهوات، وليس في الوجود شيء لا يدركه الله، وليس له شهوة فيحتبس عنها، فكانت دعواهم في المائدة أبلغ لقوله: **"حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا"**، فادّعوا النهاية باللفظ **"حسبنا"**، فنفي ذلك بالعلم، وهو النهاية.

أمّا في البقرة فقالوا: **"بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا"**، ولم تكن النهاية، فنفي بما هو دون العلم، لتكون كلٌّ دعوى منفية بما يلائمها. والله أعلم[7].

ثمّ إنّ آية البقرة سيقت في مقام «اتّخاذهم الأصنام والأنداد، وعبادتها من دون الله ومحبّتها، والعقل الصحيح يأبى ذلك عند نظره»[8].

أمّا في المائدة فسيقت في مقام «التحريم والتحليل، بعدما افتتح الكلام بقوله تعالى: **"لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم"** [المائدة: 87]، وفي اتخاذ البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي؛ والتحليلُ والتحريم من باب العلم والنقل»[9].

5- قوله تعالى: **" تلك حدود الله فلا تقربوها"** [البقرة: 187].

وقوله سبحانه: **" تلك حدود الله فلا تعتدوها"** [البقرة: 229].

إنّ الله جلّ وعلا اصطفى هذه الأمّة على سائر الأمم، فأرسل إليها أفضل رسله صلّى الله عليه وسلّم، وأنزل عليها أفضل كتبه، وشرع لها أفضل شرائع دينه، فكان من شرعه أن أحلّ لهم الحلال، وحرّم عليهم الحرام. فلمّا أحلّ الحلال وبيّنه سبحانه قال: **"تلك حدود الله فلا تعتدوها"**، أي: الزموها ولا تتجاوزوها، ففيها غنية لكم وكفاية، فلو أفنى الإنسان عمره في طلب الحلال لكفاه ذلك وأغناه عن غيره لكثرته وسعته، باعتباره الأصل، كما جاء في القاعدة الأصولية: **"الأصل في الأشياء الإباحة إلّا ما جاء الدليل بتحريمه"**، ومعلوم أنّ المستثنى قليل جدّا بالنظر إلى المستثنى منه، فقولنا مثلاً: حضر الجميع إلّا عليّاً، نفهم أنّ الذي لم يحضر عليّ فقط، وهو فرد واحد باعتبار الحاضرين وهم جماعة، وعددهم كثير.

ولمّا حرّم الحرام، وبيّن معالمه جلّ جلاله قال: **"تلك حدود الله فلا تقربوها"**، أي: ابتعدوا عنها ولا تقتربوا منها، واجعلوا حاجزا بينكم وبينها، قائما على الورع وخشية الله ومراقبته.

والآية الأولى وردت في سياق ذكر المحرّمات في الصيام والاعتكاف من الأكل والمشرب والوطء والمباشرة، فناسب **"فلا تقربوها"**.

أمّا الثانية فإنّها وردت في سياق ذكر أحكام وأوامر في الطلاق والعدّة والإيلاء والرجعة وغيرها، فناسب **"فلا تعتدوها"**.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد قطع بأصالة تعبيره، وإيجاز لفظه، قولَ كلِّ خطيب حين قال: «وقد قال الله تعالى: **"تلك حدود الله فلا تقربوها"** وهي أول الحرام، وقال: **"تلك حدود الله فلا تعتدوها"** وهي آخر الحلال»[10].

6- قوله تعالى: **" وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف"** [البقرة: 231].

وقوله سبحانه: **" فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف"** [الطلاق: 2].

ومدار المسألة في هاتين الآيتين حول العبارتين: **"سرّحوهن"** و**"فارقوهن"**.

وبالرجوع إلى سياق الآيتين ينفكّ الإشكال، وتظهر مناسبة كِلا اللفظين لمقامهما؛ ذلك أنّ آية البقرة اكتنفها النهي عن مضارّة النساء، وتحريم أخذ شيء منهنّ إلّا إذا وقع منهنّ ما يسوّغ ذلك من عدم إقامة حدود الله تعالى، كما تقرّر منع عضلهنّ، وما يفهم منه الأمر بالإحسان إليهنّ حالي الاتّصال والانفصال،

فناسب هذا، التعبير بلفظ **"سرّحوهن"** لما فيه من دلالة على اللين والتسامح والمجاملة والإحسان والإكرام؛ بدليل إردافه بقوله تعالى: **"أو تسريح بإحسان"**، وليجريَ منسجما مع ما تقدّمه من قوله تعالى: **"الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"** [البقرة: 229].

وقد روعي في هذه الآية كلّها مقصد التلطّف، وتحسين الحال في المحبّة مع الاتّصال، والإكرام مع الافتراق، ألا ترى إلى قوله تعالى: **"ومتعوهن على المحسن قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين"** [البقرة: 236]، وقوله سبحانه بعدها: **" وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم"** [البقرة: 237].

أمّا آية الطلاق فلم يكتنفها ذكر الإضرار بالنساء أو ظلمهم، فورد فيها التعبير عن الانفصال بلفظ: الفراق **"فارقوهن"** على أصل معناه دون الكناية عنه، واكتفى لبيان مقصد المجاملة والإحسان بين الشريكين، بأن أردف ذلك بقوله **"بمعروف"**، فحصل المقصود، والله المحمود[11].

7- قوله تعالى: **" قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر"** [آل عمران: 47].

وقوله سبحانه: **" قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا"** [مريم: 20].

فجاءت الأولى بلفظ **"ولد"**، والثانية بلفظ **"غلام"**، وهذا لأنّ الآية الأولى من آل عمران تقدّمها ذكر المسيح عليه السلام، وهو ولد مريم في قوله تعالى: **" إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين"** [آل عمران: 45].

أمّا الآية الثانية من سورة مريم فقد تقدّمها ذكر الغلام، في قوله سبحانه: **" قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا"** [مريم: 19]، فجاء الحال بما يوافق كلّ مقام من المقال. والله أعلم[12].

8- قوله تعالى: **" إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا"** [النساء: 149].

وقوله تعالى: **" إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما"** [الأحزاب: 54].

وردت الأولى بلفظ **"خيراً"** وعمّم في الثانية بلفظ **"شيئاً"**، ذلك أنّ لفظ الخير في الأولى ذكر مقابلا لذكر السوء في قوله تعالى: **"لا يحب الله الجهر بالسوء من القول"** إلّا من المظلوم بدعاء أو استنصار، ثمّ نبّه على فضيلة ترك الجهر من المظلوم إمّا بعدم المؤاخذة أو العفو، وهذا لأنّ الله تعالى عفوّ يحبّ العفو. ، والعفو عن المسيء مع القدرة عليه أصل كل خير وفضيلة في الخليقة، لهذا قال سبحانه: **"إن تبدوا خيرا"**، ولفظ الخير اسم جامع لكلّ برٍّ وإحسان ومزيّة.

أمّا آية الأحزاب فوردت في سياق ذكر علم الله تعالى بما في القلوب في قوله: **" والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما"** [الأحزاب: 51]، وعلم الله محيط بكلّ شيء، عامّ في كل شيء خيره وشرّه فلهذا قال: ، بصيغة العموم، وأعمُّ الأسماء "شيء". والله أعلم[13].

9- قوله تعالى: **" وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير"** [الأنعام: 17].

وقوله تعالى: **"وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم"** [يونس: 108].

استأثرت آية يونس في شطرها الأخير بلفظ **"يردك"** مخالفة في ذلك المعهود في شطرها الأوّل، وفي آية الأنعام، فإضافة إلى قصد التنويع والتفنّن في التعبير، فإن الضرّ إذا وقع لا يكشفه إلّا الله تعالى، فاستوى فيه الموضعان، أمّا الخير فقد يراد قبل نيله بزمن، ثمّ ينيله بعد ذلك، إمّا من الله تعالى، أو من غيره، فهي حالتان: حالة إيرادته قبل نيله، وحالة نيله، فذكر الحالتين في السورتين.

فآية الأنعام حالة نيله، فعبّر عنه بالمسّ المشعر بوجوده، ثمّ قال: **" فهو على كل شيء قدير"**، أي على ذلك، وعلى خيراتٍ بعده، وفيه بشارة بنيل أمثاله.

وآية يونس حالة إيرادة الخير قبل نيله، فقال **"يردك"**، ثمّ قال: **" فلا راد لفضله"**، أي إذا أراده قبل نيله. ولذلك قال: **" يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم"**، وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله في آية الأنعام: **" وإن يمسسك بخير"**، فاجتمع في آية يونس الأمران معا، وكأن قد قيل فيها: وإن يمسسك بخير ويردك به، فلا رادّ لما أصابك به وأراده لك، فآية يونس تضمّنت بشارة له بإرادة الخير ونيله إيّاه معا، زيادة على ما في آية الأنعام، والله اعلم[14].

10- قوله تعالى: **" ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون"** [الأنعام: 112].

وقوله سبحانه: **" ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون"** [الأنعام: 137].

وردت الآية الأولى بلفظ **"ربك"** والثانية بلفظ **"الله"**، ذلك أنّ الآية الأولى وقعت عقيب آيات فيها ذكر الربّ مرات عديدة منها: **" قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ"** [الأنعام: ١٠٤]، وقوله: **" واتبع ما أوحي إليك من ربك"** [الأنعام: 106]، وقوله: **" ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون"** [الأنعام: 108]، فختم في الآية بذكر الربّ ليوافق آخرها أوّلها. هذا من جهة، ولأنّ الآية سبقها أيضا آيات فيها ذكر لمستلزمات الربوبيّة، من الخلق والملك، والتدبير والتصريف لشؤون هذا الكون، وكذا الإرادة والمشيئة المطلقة، وذلك في قوله سبحانه : **" خالق كل شيء فاعبدوه"** [الأنعام: 102]، وقوله: **" وكذلك نصرف"** [الأنعام: 105]، وقوله: **" ولو شاء الله ما أشركوا"** [الأنعام: 107]، وقوله: **" ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون"** [الأنعام: 110]، وقوله: **" وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا"** [الأنعام: 112]، فكان من المناسب لسياق الآيات أن يرد لفظ "الربّ" الموافق لمستلزماته قبله، من جهة أخرى. والله أعلم.

أمّا الآية الثانية. فقد تقدّمها قوله تعالى: **" وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا"**، فبيّن الله سبحانه شركهم في عبادتهم لله، المنافي لحقيقة الألوهية، التي هي صرف العبادة لله وحده دون ما سواه، فناسب ذكره سبحانه باللفظ **"الله"** الدالّ على الألوهية المنافية للشرك. والله أعلم[15].

11- قوله تعالى: **" ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون"** [الأنعام: 151].

وقوله سبحانه: **" ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون"** [الأنعام: 152].

وقوله جلّ شأنه: **" ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون"** [الأنعام: 153].

اختلفت الآيات الثلاث في الألفاظ **"تعقلون"** و**"تذكرون"** و**"تتّقون"**.

وسبب الاختلاف أنّ الآية الأولى جاءت مشتملة على خمسة أشياء كلّها عظام جسام، فكانت الوصيّة من أبلغ الوصايا، فختمها بما في الإنسان من أشرف السجايا، وهو العقل الذي امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، فإنّ المحرّمات المذكورة في هذه الآية لا يمكن أن يقع فيها عاقل قد نظر بعقله؛ لذلك جاء التعبير في ختامها بقوله: **" لعلكم تعقلون"**.

أمّا الآية الثانية فقد اشتملت على خمسة أشياء يقبح تعاطي ضدّها وارتكابها فكانت الوصيّة بها تجرى مجرى الزجر والوعظ، فختم الآية بقوله **"تذكّرون"** أي: تتّعظون بمواعظ الله. ولأن هذه المحرّمات المنهيّ عنها شهوات قد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، ناسب ذلك كلّه الدعوة إلى التذكّر بقوله **" لعلكم تذكرون"**.

أمّا الآية الثالثة فإنّها جاءت مشتملة على ذكر الصراط المستقيم، والتحريض على اتّباعه واجتناب مناهيه.

وركوب هذه الجادّة الكاملة يتضمّن الفضائل كلّها فعبّر عنها بالتقوى التي هي ملاك العمل، وخير الزاد، وذلك في قوله **" لعلكم تتقون"**[16].

ثمّ إنّه لا يتّقي إلّا من تذكّر، ولا يتذكّر إلّا من عقل، فجاء هذا الترتيب البديع في هذا النسق المعجز ليدلّ على أنّ من عقل تذكّر، ومن تذكّر حملته الذكرى على التقوى، ومن اتّقى فقد ظفر بخير الزاد يوم المعاد. والله أعلى وأعلم.

12- قوله تعالى: **" وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا"** [الكهف: 36].

وقوله سبحانه: **" وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ"** [فصلت: 50].

فإضافة إلى تنويع الخطاب في الآيتين، فإنّ في لفظ "الردّ" من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ "الرجوع"، فلمّا كان آية صاحب الكهف، وصف جنّته بغاية المراد بالجنان، كانت مفارقته لها أشدّ على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كانت فيه، لأنّه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب آية الكهف، فناسب ذلك لفظ "الردّ" هنا، ولفظ "الرجوع" هناك[17].

13- قوله تعالى: **" وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين"** [الأنبياء: 70].

وقوله سبحانه: **" فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين"** [الصافات: 98].

عبّرت الأولى بـ: **"الأخسرين"** والثانية بـ: **"الأسفلين"**، لأنّ في سورة الأنبيّاء كادهم إبراهيم عليه السلام بقوله: **" وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين"** [الأنبياء: 57]. وكادوا هم إبراهيم بقوله تعالى: **" وأرادوا به كيدا"**، فجرت بينهم المكايدة، فغلبهم إبراهيم لأنّه كسر أصنامهم، ولم يغلبوه لأنّهم لم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فكانوا هم الأخسرين.

أمّا سورة الصافات، فقد قال فيها تعالى: **" قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم"** [الصافات: 97]، فأجّجوا نارا عظيمة، وبنوا بنيانا عاليا ورفعوه إليه، ورموه منه إلى أسفل، فرفعه الله، وجعلهم في الدنيا من الأسفلين، وردهم في الآخرة (العقبى) أسفل سافلين، فخصّت الصافات بالأسفلين[18].

14- قوله تعالى: **" إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون"** [الأنبياء: ٩٢].

وقوله تعالى: **" وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون"** [المؤمنون: 52].

لأنّ الخطاب في سورة الأنبيّاء للكفّار، فأمرهم بالعبادة والتوحيد، أمّا سورة "المؤمنون" فهي خطاب للرسل عليهم السلام؛ بدليل قوله تعالى: **" يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم"** [المؤمنون: 51].

والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى. والله أعلم[19].

15- قوله تعالى: **" ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين"** [النمل: 87].

وقوله جلّ شأنه: **"ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون"** [الزمر: 68].

عبّرت آية النمل بالفزع وهو بعد الموت، وآية الزمر بالصعق وهو الموت. ذلك أنّ آية النمل ذكرت نفخة البعث يوم القيامة، فيفزع الناس من قبورهم بعد أن تُرَدّ إليهم أرواحُهم، لذلك قال تعالى: **" وكل أتوه داخرين"**.

أمّا آية الزمر فذكرت النفخة الأولى التي يموت فيها جميع الخلائق، فعبّر عنها بالصعق وهو الموت. لذلك أردفها بذكر النفخة الثانية بقوله تعالى: **" ثم نفخ فيه أخرى"**. والله أعلى وأعلم[20].

16- قوله تعالى: **" أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون"** [الصافات: 16].

وقوله تعالى: **" أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمدينون"** [الصافات: 53].

في الأولى **"لمبعوثون"** وفي الأخرى **"لمدينون"**، لأنّ الأولى حكاية كلام الكافرين المنكرين للبعث، والثانية حكاية قول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء وحصوله فيه، فكأنّه يقول: كان لي قرين ينكر الجزاء وما نحن فيه، فهل أنتم تطلعوني عليه؟ **" فاطلع فرءاه في سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين"** [الصافات: 55 – 57].

ثمّ إنّ ترتيب الآيتين مناسب لترتيب دلالتيهما، ذلك أنّ الآية الأولى تتحدّث عن البعث، والثانية تتحدّث عن الجزاء، والمبعوث هو الذي يُبعث من قبره ويحيى بعد موته، والمدين هو المجازى بما كان من كسبه، ولا شكّ أنّ البعث قبل الجزاء، ويحصل من أجله؛ فكان الترتيب اللفظيّ موافق للترتيب الدلاليّ المعنويّ، وهو من صور إعجاز نظم القرآن، "فتبارك الذي نزّل الفرقان"[21].

17- قوله تعالى: **" بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون"** [الزخرف: 22].

وقوله سبحانه: **" قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون"** [الزخرف: 23].

والاختلاف في الآيتين واقع في لفظتي **"مهتدون"** و**"مقتدون"**، لأنّ الآية الأولى إخبار عن قريش الذين بعث فيهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فادّعوا أنّهم وآباءهم على هدى، لذلك جاء بعدها ردّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على دعواهم في قوله تعالى: **" قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم"** [الزخرف: 24].

أمّا الثانية فهي خبر عن أمم سابقة لم يدّعوا بأنّهم على هدى، بل متّبعين آباءهم، بدليل أنّ قوم إبراهيم وهم من ضمن الأمم السالفة، قالوا: **" قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون"** [الشعراء: ٧٤]. ولم يقولوا: "إنّا على هدى"، كما قالت قريش[22].

18- قوله تعالى: **" ولا تزد الظالمين إلا ضلالا"** [نوح: 24].

وقوله سبحانه: **" ولا تزد الظالمين إلا تبارا"** [نوح: 28].

والاختلاف حاصل في **"ضلالاً"** و**"تباراً"**، فوردت الأولى بلفظ **"ضلالاً"** لأنّها وقعت بعد قوله تعالى: **" وقد أضلوا كثيرا"** ، ووردت الأخرى بلفظ **"تباراً"** أي هلاكاً. لأنّها وقعت بعد قوله تعالى: **" رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا"** [نوح: 26]، وهو دعاء بالهلاك، فجاء كلّ على ما يناسب[23]. والله أعلم.

خاتمة:

وختاما لهذا البحث، فإنّ ما ورد فيه من كشف لأسرار نظم القرآن البديع، من خلال تنوّعه اللفظيّ، وثرائه اللغويّ، وافتنانه البلاغيّ، وسرّه الإعجازيّ؛ إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على قمّة البلاغة القرآنيّة، وأنّها لا تبارى ولا تمارى ولا تجارى، وهي واردة لخدمة المقصد الأسمى، والغاية الأسنى من القرآن، وهو الهداية إلى الحقّ والدعوة إليه، وتحقيق العبوديّة لله وحده دون ما سواه.

إن القرآن الكريم هو خطاب مباشر للنفس الإنسانية الموصوفة بالجدل والخصومة والشقاق؛ فحريّ به أن ينوع ألفاظه وعباراته، ويغيرها ويكررها ويأتي بما يرادفها أو يشبهها بمراعاة كل مقام وما يناسبه من المقال، حتى يتغلغل في كيان هذه النفس المتمردة، ويحاوطها[(24)] بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة والأدلة الباهرة؛ فتستسلم لحقائقه ويقينياته بعد أن كانت متمردة، وتسكن لتلاوة آياته وتخضع لعظمتها بعد أن كانت ثائرة متكبرة، وتهدأ لكلماته الشافية، وتهتدي لما فيها من الأمور النافعة، بعد أن كانت منزعجة ضالّة، وتطمئن لمراده منها، وتثق في الخير الذي يحمله إليها، بعد أن كانت مضطربة مرتابة، وتميل إليه في لين، بعد أن كانت صادّة في قسوة؛ قال الله جلّ في علاه: **" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد"** [الزمر: 23].

وما كانت هذه المقاصد لتدرك لولا السياق القرآنيّ ببعديه الداخليّ والخارجيّ: الداخليّ المتمثّل في علاقة الكلم بعضه ببعض؛ سابقه ولاحقه، ومقدّمه ومؤخّره، والخارجيّ المتمثّل في أسباب النزول والحوادث التي من أجلها تنزّلت الآيات، ووضُحت الدلالات، وصدق الله إذ يقول سبحانه: **" وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد"** [فصلت: 42]، ويقول جل شأنه: **" كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير"** [هود: 1]. والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، والحمد لله من قبل ومن بعد.

الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، بيروت، لبنان، (4/ 618، 619). وللدكتور فاضل السامرائي بحث مهمّ في هذا، ينظر: فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار الفجر، بغداد، العراق، ط1، 1429/ 2008، ص: 133.

[2] لذلك استعرناه للكلمات هاهنا كما ترى.

[3] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المكتب التعليمي السعودي بالرباط، المغرب الأقصى، (د. ر. ت. ط)، (7/ 27). ابن تيمية، الردّ على المنطقيّين، تح: رفيق العجم، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1413/ 1993، (1/ 111).

[4] ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، تح: سعد الفلّاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1428/ 2007، (1/ 180، 181).

[5] ينظر: محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1406/ 1986. ص: 30. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1410/ 1990، ص: 98، 99.

[6] ينظر: محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 133. ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (1/ 232، 233).

[7] ينظر: الخطيب الإسكافي، درّة التنزيل وغرّة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1431/ 2010، (1/ 297- 300). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 36، 37.

[8] ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 109، 110.

[9] المصدر نفسه، ص: 109، 110.

[10] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (14/ 109). وللاستزادة، ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (1/ 313- 315). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 39. ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (1/ 258- 260). ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 113. أبو يحيى الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تح: محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408/ 1988، ص: 54.

[11] ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (1/ 268، 269).

[12] ينظر: محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 45. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 128.

[13] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (1/ 404- 406). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 54. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 143. وللمزيد ينظر: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (1/ 361- 363).

[14] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (1/ 466- 470). ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، (1/ 429، 430). ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 157، 158.

[15] للمزيد ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (1/ 508، 509). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 67، 68. محمود الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (8/ 9).

[16] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (1/ 532- 538). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 69، 70.

[17] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (2/ 825، 826). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 121. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 239، 240.

[18] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (2/ 854، 855). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 129، 130. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 252.

[19] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (2/ 866، 867). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 130، 131. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 258.

[20] ينظر: ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 283.

[21] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (2/ 1021، 1022). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 161، 162.

[22] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (3/ 1100- 1102). محمود بن حمزة الكرماني،البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 173. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 333، 334.

[23] ينظر: الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (3/ 1219، 1220). محمود بن حمزة الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 189. ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 366.

[24] حاوطتُ فلاناً محاوطةً إذا داورته في أمر تريده منه وهو يأباه. ينظر لسان العرب: مادة (حوط)، (7/ 280).